جامعة الانبار
كلية القانون والعلوم السياسية
قسم العلوم السياسية
مدرس المادة: أ.م.د. مؤيد جبير محمود

الليبرالية النسبية

ألكسي دي توكفيل ١٨٠٥-١٨٥٩

يعد ممثل الليبرالية النسبية في القرن التاسع عشر وحمل لقب مونتسكيو هذا القرن، إذ وجد مونتسكيو مثله الأعلى في النظام السياسي الانجليزي، بينما وجد توكفيل مثله الاعلى في النظام السياسي في الولايات المتحدة الامريكية.

عالج توكفيل في كتابه الديمقراطية في أمريكا موضوع الثورة الديمقراطية، والديمقراطية في نظره ليست شكلا للحكم بل هي حالة يكون عليها المجتمع وهي نقيض للاستقراطية. فبقدر ما تقوم الاخيرة عى أساس عدم المساواة في الشروط الاجتماعية، فإن الديمقراطية وعلى العكس منها تماما تقوم على إلغاء نظام الامتيازات الارستقراطية المتوارثة وتحل محله نظام المساواة في الشروط الاجتماعية لتكون كل الاعمال والمهن وكل ميادين الشرف والكرامة مفتوحة امام الجميع لتضمن فكرة الديمقراطية بذلك وفي الوقت نفسه المساواة الاجتماعية والاتجاه نحو وحدة أساليب الحياة ومستوياتها.

وتلمس توكفيل الديمقراطية بهذا المعنى في الولايات المتحدة أثناء زيارته لها عام ١٨٣٠، فقد رأى أن هذه البلاد تقدم نموذجا للمجتمع القائم على المساواة، ومن شأن المساواة الاجتماعية في تصوره ان تقود الى نوع محدد من المساواة السياسية يتجسد عادة في منتظمين، فهناك أولا سيادة الجميع، وهناك أيضا سيادة الواحدة على الجميع.

ويرى توكفيل بأن الامريكين اختاروا المنتظم الاول متحاشين هيمنة شخص واحد على الجميع ليتمسكوا بسيادة الشعب. ولاشك ان السلطة التي يمتلكها الشعب سلطة مطلقة لكنها في الوقت نفسه ليست سلطة شخص واحد، ولا هي سلطة الجميع لأنها في الحقيقة سلطة العدد الاكبر من الشعب أي سلطة الأكثرية، وإذ تمثل الاكثرية في نظر توكفيل الطغيان الذي يشكل خطرا يهدد الحرية في المستقبل فإنه لايتردد في اعلان تخوفه من الجهة التي تجسد هذه الأكثرية.

ويربط توكفيل بين عيوب الديمقراطية وبين وجود الاحزاب ، فهو يرى بان الديمقراطية نموذج للفوضى الاجتماعية الموصلة الى العبودية مما يجعل هذه الديمقراطية تميل في جوهرها ان تكون شرا أخلاقيا عظيما.

لهذا اتخذ موقفا سلبيا من الاحزاب ورجال السياسة الذين يقفون على رأسها لانه وجد فيهم أداة لتكريس الفردية من خلال انطلاقها وانطلاقهم من المصالح الخاصة. فالديمقراطية على عكس الاستقراطية تخضع فيها المجتمعات الديمقراطية لفكرة مناقضة لانها تتمسك بالسلطة المركزية الوحيدة الت تمارس وظائفها دونما وساطات وتضغط بكل ثقلها على الافراد دون ان يكون هناك بين الفرد والدولة (مجتمعات جزئية).

ويشير توكفيل ان الفرد سيكون ضعيفا في ظل الديمقراطية ويجد نفسه مفتقدا لأي سند، ومن ثم فإن ضعفه هذا سيدفعه اكثر فأكثر الى أحضان (الكائن الشنيع) الذي هو الدولة على حد تعبيره.

ويقدم لنا العلاج لهذه الحالة المرضية متمثلا بالحرية السياسية لأنها وحدها الجديره برأيه بأن تجعل الثورة الديمقراطية التي تحمل ثناياها خطر الاستبداد ذات جدوى بالنسبة للانسانية.

ومفهوم الحرية عند هو مفهوم الحرية التي تجد قوتها في الاتحاد، والامريكيين عبروا عن هذه الوحدة عن طريق اقامة المؤسسات الحرة المعبرة عن حالة الاتحاد، وهي تمثل العقبة امام خطر السلطة المركزية. ويضع توكفيل المؤسسات والجمعيات الدينية والهيئات المحلية في مقدمة هذه المؤسسات. واكد على ضرورة ان يتعلم الناس فن المجتمع وربما هذا يوحي برضاه عن وجود الاحزاب، ولكن حديثة عن ضرورة التجمعات لايشمل التجمعات السياسية بما فيها الأحزاب. وهو يرى أن الاحزاب الامريكية تتميز عن الاحزاب الاوربية بأنها لاتقوم على الاختلافات الايديولوجية. ويمكن القول بان الليبرالية النسبية التي تمسك بها توكفيل هي شكل من اشكال التوفيق بين الارستقراطية والليبرالية المطلقة التي كانت تجتاح الولايات المتحدة عندما زارها ودرس نظامها وديمقراطتها.

المصادر:

١- عبد الرضا الطعان، علي عباس مراد، عامر حسن فياض، ط١،موسوعة الفكر السياسي عبر العصور، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١٥.
٢- كوينتن سكنر، أسس الفكر السياسي الحديث ، عصر النهضة، ج١، ط١، ترجمة حيدر حاج اسماعيل، المنظمة العربية للنشر، بيروت، ٢٠١٢.
٣- جان توشار، تاريخ الفكر السياسي، ط٢، ترجمة علي مقلد، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣.
٤- كوينتن سكنر، أسس الفكر السياسي الحديث ، عصر الاصلاح الديني، ج٢، ط١، ترجمة حيدر حاج اسماعيل، المنظمة العربية للنشر، بيروت، ٢٠١٢.
٥- فرانسو شاتليه، تاريخ الايديولجيات-القرن ٧-١٩، ج٢، ترجمة انطون حمصي، وزارة الثقافة، سوريا، ١٩٩٧.